الفيلسوف الحاكم

للأستاذ عباس محمود العقاد

شهدنا بعد الحرب عجباً من عجب السياسة والرآسة لم يشهده جيل واحد من تاريخ بنى الإنسان

شهدنا موسيقاراً على رأس دولة ، وفيلسوفاً على رأس دولة أخرى ، وهو قبل ذلك ابن حوذى وتلميذ حداد ، ونقاشين وأفقيين على رءوس دول أخرى يجلسون على عروش القياصرة والخواقين ، ويسوسون شعوباً كبيرة بلغ بعضها الذروة من الحضارة والنظام

أحب هؤلاء جميعاً وأولاهم بعطف النفس الانسانية فيما نظن هو الفيلسوف الحاكم « مازاريك » الذى قام على جمهورية التشك والسلواق بعد الحرب العظمى ، وقضى نحبه في الشهر الغابر وهو فى السابعة والثمانين

قرأت له قبل أن أسمع الشيء الكثير عن سيرته فى الجهاد الوطنى وعن مساعيه فى السياسة الدولية : قرأت له كتابه الحافل عن « روح الروسيا » فأكبرت منه اطلاعاً واسعاً يخيل إليك أن صاحبه لن يفرغ معه لعمل من الأعمال الجسام . وخلاصة ما يقال فى الكتاب أنه لم يدع فيلسوفاً واحداً من الأقدمين أو المحدثين الا ألم برأيه وتعقب الصلات الفكرية والاجتماعية بينه وبين عقول الدعاة البارزين من فطاحل الروسيين

ووقعت لى بعد هذا الكتاب شذور من تواليفه الكثيرة يكفى لبيان نطاقها الواسع وموضوعاتها المختلفة أنها تناولت التنويم المغناطيسى كما تناولت فلسفة باسكال وهيوم ، وتناولت أدب الصقالبة كما تناولت الثورة العالمية ، وصدرت فى ذلك كله عن صدر رحب برىء من العصبية والضغينة وعن ذهن شامل مفتح النافذ على شتى الأنحاء

فى تاريخ هذا الرجل عبر لا تنتهي لمن شاء أن يتأمل فى أخلاق الناس وفى موازين العدل والانصاف بين الأمم ، وفى ضعف الانسان ولو كان من الحكماء وكان من الحاكمين

كنت أقرأ الثناء عليه وأقرأ الزراية على « روجر كازمنت » الشهيد الإرلندي فى وقت واحد

وكنت أقرأ الثناء والإزراء على عمل واحد فى وقت واحد وصحافة واحدة ، فأعجب للعقول وأعجب للأهواء ، وأعجب لمن خطر لهم أن يقولوا مرة من المرات ولو من قبيل التجوز والمزاح : كل شيء بالعقل فى هذه الدنيا ! ! وما فى هذه الدنيا شيء إلا وللعقل فيه حيرة ، وللضلال فيه جانب مقرون بجانب الهداية

هرب مازاريك من بلاده واتفق مع الحلفاء على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين ، ونجح فكان من الأبطال وأقام فى قصور هابسبرج ، ومات بين التعظيم والمحبة والإطراء

وصنع « روجر كازمنت » ، ما صنع مازاريك فهرب من بلاده واتفق مع الألمان على تأليف جيش من أبناء وطنه الأسرى والمبعدين ، وفشل فكان من الخونة المجرمين ، وسيق إلى القبر وهو ينظر إلى الشمس السافرة ويهتف : ما أجمل هذا الصباح ! ولكنه كان صباحه الأخير

والصحف البريطانية بومذاك تذكر هذا وتذكر ذاك ، فأما مازاريك فبطل كريم ، وأما كازمنت فخائن أثيم . ويتبع ذلك ما يتبع الإخفاق والخزى من مرية المفترى ، وأكذوبة الكاذب ، واجتراء اللئيم

* * *

أعني بذلك أننا أسرفنا فى الاطمئنان وبالغنا فى الاخلاد إلى دواعى الأمن والثقة والاستراحة إلى انتفاء المخاوف ؛ وقد آن لنا جداً أن ندير عيوننا فيما حولنا ، وأن نتدبر دلالة ما نرى ، وأن نمد بصرنا إلى أبعد من يومنا الحاضر . والمثل يقول : « من مأمنه يؤتى الحذر » فكيف بالذى لا يحذر شيئاً ، ولا يتقى أمراً ؟ وهب أنه مطمع فينا فان خلو بلادنا من وسائل الدفاع الكافى ، وضآلة عدتنا يغريان بنا الطامعين . وما زال الضعف إغراء كافياً للقوى بالوثب . ولنحن غير أهل للاستقلال إذا لم نحسن الحرص عليه والضن به ولم نعد العدة لطول الذود عنه والكفاح دونه . وقد يجيء زمن تبطل فيه الحروب وتعيش فيه الأمم إخواناً متآزرين متعاونين ؛ غير أنه إلى أن يجيء هذا الوقت السعيد لا يسع أمة تعرف لحقها فى الحياة قيمته وتدرك ما تقتضيه المحافظة عليه إلا أن تستعد للحرب دونه . وعسير جداً أن تحيا أمة عزلاء فى أمان من المخاوف بين أمم مدججة شاكية فى البر والبحر والهواء

ابراهيم عبد القادر المازنى

كان مازاريك في صباه عوناً للمستضعفين ولو كانوا مبغضين منبوذين ، وكان نصيراً للحق ولو كان الباطل أدنى منه إلى الشهرة والاعجاب . فدافع عن اليهود في بلاد لايطاق فيها اسم أبناء إسرائيل ، وزيف الأسانيد الموروثة التي يفخر بها أبناء قومه ويعتدونها من تراث الوطن الحرام المضنون به على النقد والتشكيك ، فكان أبوه أول من صدق فيه تهمة القادحين وذهب إليه يستأديه بعض المال الذي قبضه من مصارف اليهود ، وكان الفلاة من دعاة الوطنية في بلاده أول من تبرأ منه وخاض في عرضه حتى قال قائلهم : « إن عاراً على وطنه أن يكون بين نسائه امرأة حملت في بطنها مازاريك »

ودارت الأيام دورتها فاذا بهذا العار هو عنوان وطنه ، وهو القائل باسمه والكاتب باسمه والوكيل الذي اجتمع وكلاء بلاده بعد الحرب العظمى يعلنون على الملأ الأوربي أن كل ماوقيه مازاريك في ديار الهجرة والاغتراب هو صك نافذ على البلاد تدين به وترعاه

* * *

وجرى حديث مستفيض بين الحاكم الفيلسوف وبين المؤرخ المشهور أميل لدفج استغرق أياماً ، وجمعه لدفج في كتاب جاوزت صفحاته ثلاثمائة صفحة ، واختار له عنواناً : « حامي الديمقراطية . أو مازاريك يتكلم »

من قرأ هذا الكتاب سمع أفلاطون وأرسطو يتكلمان في العصر الحديث ؛ غير أن الايمان بالديمقراطية فيه أكبر من إيمان صاحب المدينة الفاضلة وصاحب السياسة المدنية ، لأن الحاكم الفيلسوف لايعدل بالحرية الفردية نعمة من نعم الأرض ولا نعم السماء ؛ وينعى على كارل ماركس كما ينعي على موسوليني انهما يطويان الفرد في الحكومة ، ويضحيان بالواحد على مذبح الجملة ؛ ويسأله لدفج أيهما أحق لديه بالتقديم والايثار : السلطان أو الحرية ، وإرادة الحكومة أو إرادة الأفراد ؟ فيقول : « ليس في وسعي أن أعتقد أن ضمير الفرد مطوي في ضمير اجتماعي واحد . إذ ليس في الدنيا من شيء محقق غير الضمائر الفردية . وليس أمام السياسة إلا أفراد اجتمعوا على هذا النحو ليتألف منهم مجتمع واحد يكون على ضروب شتى ومنها الفاشية . أما أنا — وأنا من الفرديين — فليس يسعني أن أسيغ فكرة الادماج أو إلغاء الأفراد ، وأن تكون الحكومة أو الأمة أو الشعب ممثلة في شخص واحد . ولا أنسى أن هناك علماء اجتماعيين ودعاة سياسيين يقبلون مايسمونه ضمير المجتمع وينكرون ضمائر الأفراد متفرقين ، ولكنها فكرة لا يقرها العلم ، ومصدرها النزعة الأرستقراطية في السياسة ... »

* * *

ووددت لو أن « مازاريك » حين مات كنت محتفظاً له بتلك الصورة التي تناسقت وتلاحقت من جهاد الشباب ومن ثورته في الكهولة ، ومن بحوثه ومصنفاته ، ومن رسالة الديمقراطية التي قام بها على سرير الدولة كما قام بها من قبل على منصة التعليم وعلى منبر الدعاية

ولكن الفيلسوف الذي يستبق في الحكم صورة أفلاطون أو صورة « السياسة الندرية » إن هو إلا أسطورة من أساطير الخيال ، نتوهمها بالنظر ونترسمها بالأمل ، ولا نلمحها بعين الواقع ولو أغضينا عن كثير

قبل أن يقضي الموت قضاءه في الحاكم الحكيم بأشهر معدودات وقع لي كتاب عن أوربا الوسطى للكاتب الانجليزي هنري بوتسي أسماه « اليد السوداء على أوربا » أحصى فيه مظالم الشعوب الصغيرة التي ضمتها معاهدة فرساي إلى حكومات لاتحبهم ولا يحبونها ، ومنها شعب السلواق المضمومين إلى حكومة « مازاريك » رسول الديمقراطية ونصير كل شعب مظلوم أيام كان الظلم نازلا بتلك الشعوب من آل هابسبرج !

وكان مازاريك قد عاقد وكلاء السلواق المقيمين بالولايات المتحدة في السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩١٥ أن تكون حكومتهم مستقلة في داخل الدولة على مثال الولايات المتحدة الأميركية ، وأن يكون لهم مجلسهم النيابي ، ومحاكمهم التي يضعون لها شرائعها ، ولغتهم في التعليم والادارة والحياة العامة

فلما جاء يوم الانجاز وقامت الدولة التي مهد لها أولئك الوكلاء إذا بأرضهم مستعمرة مملوكة ، وإذا بهم أتباع مسخرون ، وإذا بالعقد المبرم قصاصة مهملة ، وإذا بالحاكم الحكيم يتحلل من عقده فيلجأ إلى حيلة لم يلجأ إليها عاهل من عواهل هابسبرج ولا متحذلق عندنا من صناع الفتاوي وطلاب الحيل الشرعية ، فيقول لوكلاء الشعب المهضوم إن العقد إنما أبرم في يوم بطالة رسمية عند الأمة الأميركية ، وذلك في شرع البلاد التي أبرم فيها مبطل لشروطه ناقض لفحواه !

ويلي ذلك قصة ألمية من قصص المظالم والدعايات الكاذبة ،

ت فيها الأصوات وذهبت فيها صرخات المفلوبين على آذان صبة الأمم كما تذهب زمجرة البحر الصاخب بين أجواز الفضاء

* * *

سيرة الرجل عبرة لا تنقضي ودروس لا تنفد . أولها : أن ليلوف لن يسلم من لوثة الحكم والسياسة ولو أضمر الخير لسلف الجهاد الطويل فى قضايا المظالم والشكايا

وثانيها : أن الديمقراطية لا تسلم فى وطن تختلف أجناسه ولغاته ديانه وطبقات الحضارة فيه إلا على أساس « الولايات المتحدة » ى يستقل فيها كل فريق بالحكم والتشريع

وثالثها : أن أوربا الوسطى لا تزال كما كانت قبل الحرب نظمى غيلاً تصطرع فيه ضوارى الأحقاد ويوشك أن يندفع بالم مرة أخرى إلى حرب لا تؤمن لها عاقبة

وإننا على ما انتاب الديمقراطية من خيبة ، وما تعاورها من ض وتقويض ، لا نزال على إيمان وثيق بها أنها هى كهف السلام عقل بنى الانسان ، ومآل الحكم فى المستقل البعيد إن لم يعجل النصر فى مستقبل قريب

فالدول الديمقراطية لا تبغي الحرب كما تبغيها الدول الدكتاتورية، يطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة لا يخشى منها على سلام لم كما يخشى من إيطاليا وألمانيا واليابان والجمهوريات الروسية

ولقد يقال إن بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة تسالم الدول الأخريات لأنها شبعت من المستعمرات فلا حاجة إلى المشاكسة ولا إلى اقتحام المشكلات ، لكنه اعتراض يه فى ظاهره غير وجيه فى لبابه . إذ أن المسالمة والاكتفاء سن جميع الدول الديمقراطية ولو لم تكن لها مستعمرات ولا أسواق مملوكة فى بلاد المستضعفين ؛ وهذه الدنمرك والسويد والنرويج وسويسرة لا تملك أرضاً وهى من اليسر والرواج فى حال يحسدها عليه المالكون ؛ وربما خلت من الجند والسلاح فليس بها إلا قليل من الشرطة وما يحتاجون إليه من أداة

إنما الحقيقة أن الدكتاتورية والحرب قرينان لا يفترقان ، لأن الدكتاتورية لا تقوم إلا على عسكرية ، والعسكرية لا تستقر طويلا بغير قتال ، ولا أمان للعالم كله إلا باتجاه سريع إلى الديمقراطية يقصيه من زبانية الاستبداد سواء كانوا من أهل اليمين أو من أهل الشمال

عباس محمود العقاد

الفنادق والمقاهي التاريخية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كما أن الآثار والأطلال والذكريات الباقية تستمد جلالها من الحوادث والمناسبات التاريخية التى ارتبطت بقيامها ، فكذلك تستمد جلالها من الزمن ؛ وقد يكون الزمن كل شيء فيما تنشح به الأطلال الدوارس أحياناً من روعة الخلود ؛ وأقدم الهيا كل والآثار هي بلا ريب أعرقها من هذه الناحية ؛ فالقديم مهما كانت ضآلته من الناحية التاريخية أو الفنية يبعث إلى النفس أثراً خاصا ويحملها إلى تلك العصور الذاهبة الذى يرجع إليها ويرتبط بها

فما بالك إذا كان هذا الأثر أو الصرح القديم لا يزال كسابق عهده يقوم بمهمته التى أنشئ لها منذ الأحقاب المتعاقبة ، ويمثل حياة وبهجة ، ويساير العصر ، ويربط الحاضر بالماضى بأوثق الصلات ؟

لسنا نريد أن نحدثك فى هذا المقال عن معاهد أو آثار تاريخية من هياكل أو صروح أو معاهد أو غيرها مما اصطلح على اعتباره آثاراً تاريخية تمتاز بقيمتها الفنية وبالمناسبات العظيمة التى أنشئت من أجلها ؛ ولكنا نريد أن نحدثك عن نوع آخر من هذه المنشآت التى قامت دون مناسبة تاريخية خاصة لتقوم بمهمة من مهام الحياة العادية ، ثم استطاعت أن تغالب صروف الزمن ، وأن تحمل رسالتها التواضعة خلال أحقاب وأحقاب ، وأن تبقى إلى اليوم قائمة بنفس مهمتها ، وأن تكتسب بذلك جلال القديم وروعته

نريد بذلك الفنادق والمقاهى التاريخية

إنه لمن الشائق حقا أن تنزل فى فندق ما ، أو تجلس فى مقهى أو مطعم ما ، فيقال لك إن هذا الفندق أو المطعم أو المقهى يرجع قيامه إلى أربعة قرون أو خمسة ، وإنه لا يزال كما نشأ باسمه وأوضاعه القائمة لم يتغير منه شيء إلا ما اقتضاه الزمن من أعمال الصيانة ، وإن كثيراً من الشخصيات التاريخية العظيمة قد مرت به قبلك ، ونزلت حيث تنزل أو جلست حيث تجلس . إن فى ذلك ما يذكى الخيال ويبعث إلى النفس جلالا خاصا هو جلال هذه الأحقاب الطويلة التى مرت بهذه النشأة المتواضعة ، وجلال تلك